مسلم (١) أمّا الاثنان من قريش فهما طلحة بن عبيدالله وسعد بن أبى وقّاص (٢) روى البخاريّ عن قيس بن أبى حازم قال : رأيت يد طلحة شلّاء وقى بها النّبيّ ﷺ يعنى يوم أحد (٣)عن سعيد بن المسيّب أنّه سمع سعد بن أبى وقّاص يقول : مثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحدٍ وقال : ارم فداك أبى وأمّى . وروى البخاريّ أن سعداً قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولنى النّبل ويقول : ارم فداك أبى وأمّى . حتّى إنّه ليناولنى السّهم ليس له نصلٌ فأرمى به . وثبت فى الصّحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبى وقّاص عن أبيه قال : رأيت يوم أحدٍ عن يمين النّبيّ ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثيابٌ بيض يقاتلان عنه أشدّ القتال مارأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعنى جبريل وميكائيل عليهما السّلام (١)

وبالإضافة إلى فضل الله تعالى على المؤمنين بعدم استئصالهم فضله جلّ وعلا عليهم بإثابتهم ومجازاتهم غمّاً على غمّ كي يطرد الغمّ الثّانى الغمّ الأوّل . أمّا الغمّ الأوّل فقد نصّت عليه الآية الكريمة : «لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم» لقد حزن المؤمنون كثيراً على مافاتهم من النّصر الّذى رأوا بشائره بأعينهم ومن الغنيمة ، وعلى ماأصابهم من قتل وجراح . لقد استشهد من المؤمنين سبعون ، ستّةٌ وستّون من الأنصار وأربعة من المهاجرين (٥) وكان بطلحة مثلًا بضعٌ وسبعون أو أقلّ أو أكثر من طعنةٍ ورميةٍ وضربة وقطعت إصبعه (٦) وأمّا الغمّ الثّانى فذلك حين قيل قتل محمّد ﷺ وحين علاهم المشركون فوق الجبل وقال النّبيّ ﷺ اللّهُمّ ليس لهم أن يعلونا (٧) لقد خشي المؤمنون أن يعاود المشركون الكرّة عليهم .

وتقرّر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى خبيرٌ بما يعمل المؤمنون وبما يعمل سواهم فليس من شيءٍ يخفى عليه جلّ وعلا فى الأرض ولافى السّماء .

(١) تفسير ابن كثير ٤١٥/١
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤١٥/١
(٣) تفسير ابن كثير ٤١٥/١
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٤١٥/١
(٥) تفسير الطّبريّ ٨٨/٤
(٦) انظر تفسير ابن كثير ٤١٦/١
(٧) انظر تفسير ابن كثير ٤١٧/١ وتفسير الطّبريّ ٩١٠/٤

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

أَمَنَةً : أمناً (١) وأماناً على أهل الإخلاص منكم واليقين دون أهل النّفاق والشّك (٢)

نعاساً : بدل من أمنة (٣)

يغشى : يغطّى ويستر ويكسو (٤)

لبرز : البراز الفضاء وبرز حصل فى براز ، ومنه المبارزة للقتال وهى الظّهور من الصّف (٥)

مضاجعهم : مصارعهم والمواضع الّتى كتب عليهم القتل فيها (٦)

وليبتلى الله مافى صدوركم : وليختبر الله الّذى فى صدوركم (٧)

وليمحّص : التّمحيص : تخليص الشّىء مما فيه من عيبٍ وابرازه عمّا هو متّصلٌ به وكذلك المحص يقال : مَحَصْتُ الذّهب ومحّصته إذا أزلت عنه مايشوبه من خبث فالتّمحيص هنا كالتّزكية والتّطهير ونحو ذلك من الألفاظ (٨)

فضل الله تعالى عظيمٌ على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين . وقد تجلّى الفضل على المؤمنين فى إثابة الله تعالى المؤمنين غمّاً على غمّ ، وقد كان الغمّ الثّانى سبباً فى طرد الغمّ الأوّل . أمّا الغمّ الأوّل فالحزن على مافاتهم من نصرٍ وغنيمة والأسى لما أصابهم من قتلٍ وجراح . وأمّا الغمّ الثّانى فما حلّ بهم من حزنٍ وهمٍّ بسبب ماأشيع من قتل رسول الله ﷺ وبسبب ماظنّه المؤمنون من كرّ أبى سفيان عليهم مرّةً أخرى لاستئصالهم . أما وقد أذهب الغمّ الثّانى بفضل الله تعالى الغمّ الأوّل فإنّ فضل الله تعالى الّذى لارادّ له بإذنه تعالى قد تجاوز ذلك إلى إحلال الأمن بالمؤمنين وإنزال الأمان عليهم والطّمأنينة ، وذلك فى هيئة النّعاس الّذى يغشى الطّائفة المؤمنة المجاهدة فى سبيله جلّ وعلا والنّوم الّذى يغطّيها

(١) الجلالين
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/٩٢ وأنظر تفسير ابن كثير ١/٤١٨
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٩٢
(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٣٦١
(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٤٣
(٦) انظر تفسير الطّبريّ ٤/٩٥
(٧) انظر تفسير الطّبريّ ٤/٩٥
(٨) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٤٦٤

ويسترها. قال تعالى : «ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ أمَنةً نُعاساً يَغْشَى طائفةً منكم» وذلك على غرار النّعاس الّذى غشّى المؤمنين فى بدر والّذى أشار إليه قوله تعالى (١) : «إذ يغشّيكم النُّعاس أمَنةً منه وينزّل عليكم من السّماء ماءً ليطهّركم به ويُذْهِبَ عنكم رِجْز الشّيطان وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام» . عن أنس عن أبى طلحة قال : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت ما أرى أحداً من القوم إلّا تحت حَجَفَتِه (٢) يميد من النّعاس (٣) وعن أنس بن مالك عن أبى طلحة أنّه كان يومئذٍ ممّن غشيه النّعاس ، قال : كان السّيف يسقط من يدى ثمّ آخذه من النّعاس (٤) قال عبدالله بن مسعود : النّعاس فى القتال أمنة ، والنّعاس فى الصّلاة من الشّيطان (٥) وفى رواية : النّعاس فى القتال من الله . وفى الصّلاة من الشّيطان (٦)

وإذا كان الأمان نعاساً من نصيب الطّائفة المؤمنة دليلًا على السّكينة الّتى أنزلها الله تعالى عليهم والطّمأنينة الّتى جعلها فى قلوبهم ، فإنّ الطّائفة الأخرى وهى طائفة المنافقين قد أهمّتهم أنفسهم وشغل بالهم الخوف من المشركين وملأ جوانحهم الحرص على الحياة وأقلق مضاجعهم توقّعهم عودة المشركين لاستئصال البقية الباقية منهم ولهذا هم يظنّون بالله تعالى غير الظّنّ الحقّ بل ظنّ الجاهلّية بأنّ الإسلام لن تقوم له قائمة وأنّ الدّولة للمشركين . وقد عبّر المنافقون عن سوء ظنّهم بالله تعالى وبرسوله ﷺ بالقول الّذى جاء فى الآية الكريمة على لسانهم : «يقولون هل لنا من الأمر من شىء» والمعنى هل لنا من أمر الخروج من المدينة إلى ميدان القتال من رأيٍ كي نبديه ورغبةٍ كي نفصح عنها فنعلن رفضنا للخروج من أجل القتال مع المؤمنين فى ميدان الشّرف والبطولة . ويريد المنافقون بطبيعة الحال أن يعبّروا فى صيغة الاستفهام هذه عن حقيقة كونهم لا رأي لهم وإلّا لبقوا فى المدينة مع

(١) سورة الأنفال ١١
(٢) الحَجَفَةُ : الترس من جلدٍ بلا خشب والجمع حجف
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٩٢
(٤) تفسير الطّبريّ ٤/٩٢
(٥) تفسير الطّبريّ ٤/٩٣
(٦) تفسير ابن كثير ١/٤١٨

الخوالف . عن عبدالله بن الزّبير عن الزّبير قال : والله إنّى لأسمع قول معتّب بن قشير أخى بنى عمرو بن عوف والنّعاس يغشاني ما أسمعه إلّا كالحلم حين قال : لو كان لنا من الأمر شيءٌ ماقتلنا هٰاهنا[1] عن ابن جريج قال : قيل لعبدالله بن أبيّ : قتل بنو الخزرج اليوم . قال: وهل لنا من الأمر من شيء[2] وتفحم الآية الكريمة بالرّدّ أولئك المنافقين : «قل إنّ الأمر كلّه لله» والمعنى قل يامحمّد إنّ الأمر كلّه لله تعالى ، ومن ذلك أمرنا نحن المؤمنين وأمركم أيّها المنافقون . وتقرّر الآية الكريمة أنّ المنافقين الجبناء يخفون فى أنفسهم من عدم الرّغبة فى الجهاد فى سبيل الله تعالى والميل إلى البقاء فى المدينة مع الخوالف مالا يبدون له ﷺ لأنّهم يعلنون خلاف مايسرّون ويظهرون خلاف مايضمرون . وحينما يكون تألّم المنافقين شديداً وحينما يشعرون فى أنفسهم بشيءٍ من الاطمئنان بسبب ماأصاب المسلمين فى أحدٍ مثلًا لانشغال المؤمنين عنهم فإنّهم توافق أقوالهم معتقداتهم ، ويميلون إلى التّصريح بعد التّلميح . وهاهم أولاء بعد أن ألمحوا إلى رأيهم الحقيقيّ فى الخروج إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى فى القول : «هل لنا من الأمر من شيء» هم يصرّحون ــ على نحو تصريح معتّب بن قشير وعبدالله بن أبيّ الّذى مرّ بنا ــ وذلك فى القول على لسانهم : «يقولون لو كان لنا من الأمرِ شيءٌ ماقتلنا هٰهنا» والمعنى لو كان لنا رأيٌ نبديه ويصغى لنا فيه لما خرجنا إلى ميدان الشّرف والبطولة والرّجولة والجهاد فى سبيل الله تعالى ولما قتل مِنّا من قتل فى سفح جبل أحد .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ من كتب الله عليه القتل منكم أنتم يامن تهرفون بمالا تعرفون ، فى يوم أحدٍ أو فى غيره من الايّام ، فى سفح الجبل أو فى غيره من الأماكن ، فإنّه سوف يبرز إلى مضجعه ويخرج إلى مصرعه كي يبلغ الكتاب أجله ولن يحول نكوصه عن الجهاد فى سبيل الله تعالى عن أن يقتل مادام ربّ العزّة قد كتب عليه ذلك . وإنّ الّذين استشهدوا فى أحد قد اتّخذهم الله سبحانه وتعالى شهداء سعداء .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٩٤
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/٩٤

وانظر إلى جملة «لبرز» الّتي تستعملها الآية الكريمة دون غيرها من الجمل ، لأنّها تقوم بدور لا يقوم به سواها ، إذ أنّها ترتبط بالبَراز إي بالفضاء وهو المكان الخالى الّذى ليس فيه أيّ حائل يحول بين البصر وبين أن يبلغ منتهى مدّه . ومثل هذا المكان الخالى مسهّل لحقيقة القتل لّتى كتبها جلّ وعلا على من قضى عليه ذلك وكأنه ليس ثمّة شيءٌ يمكن أن يفرّ إليه الشّخص ويأوى ، فكأنّ المكان الّذى سيصرع فيه القتيل مضجعه الّذى يأوى إليه اختياراً بقصد الرّاحة وأخذ نصيبه من النّوم .

وتبيّن الآية الكريمة الحكمة من الابتلاء يوم أحد . إنّ ذلك إنّما تمّ بقصد أن يختبر الله سبحانه وتعالى مافى صدور المؤمنين المقاتلين كي يتبيّن مدى إيمانهم ويقينهم ، وليمحّص الله تعالى مافى قلوب المؤمنين صادق الإيمان بقصد إزالة مايصحّ أن يكون قد تسرّب إلى قلوب المؤمنين وخامرها وخالط شغافها ممّا ينبغى فصله كي تتطهّر تلك القلوب وتزكو تلك النّفوس .

وبما أنّ الصّدور شاملةٌ للقلوب من بين ماتشتمل عليه ، فقد كان فى التّذييل إشارة إلى تلك الصّدور الّتى تتّسع للقلوب وسواها وذلك فى القول : «والله عليمٌ بذات الصّدور» إنّ الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء وإنّما يبتلى جلّ وعلا بعض عباده ليعلم تعالى علم ظهور ماتضمره قلوبهم وماتنطوى عليه صدورهم وجوانحهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

إنّما استزلّهم الشيطان : إنّما دعاهم إلى الزّلة الشّيطان . وقوله : استزلّ استفعل من الزّلّة ، والزّلّة هي الخطيئة(١) والزّلّة فى الأصل استرسال الرّجل من غير قصد ، يقال : زلّتْ رِجلٌ تزلّ ، والزّلّة المكان الزّلِق . وقيل للذّنب من غير قصدٍ زلّة تشبيهاً بزلّة الرّجل ، قال تعالى : فإن زللتم ، فأزلّهما الشّيطان . واستزلّه : إذا تحرّى زلّته . وقوله : إنما استزلّهم الشّيطان : أى استجرّهم الشّيطان حتّى زلّوا فإنّ الخطيئة الصّغيرة إذا ترخّص الإنسانُ فيها تصير مسهّلةً لسبيل الشّيطان على نفسه (٢)

ببعض ماكسبوا : ببعض ماعملوا من الذّنوب (٣)

تبيّن الآية الكريمة أنّ الّذين تولّوا من المؤمنين يوم أحدٍ عن قتال المشركين وفرّوا من الميدان بعد أن صاح من صاح بأنّ النّبيّ ﷺ قد قتل حتّى إنّ منهم من انتهى به الفرار إلى المدينة المنوّرة ومنهم من صعد الجبل إلى الصّخرة ، إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ماكسبوا ، واستجرّهم إلى هذه الخطيئة ، ودعاهم إلى ذلك الذّنب بسبب مارتكبوا من ذنوبٍ سالفةٍ ، وتحرّى إيقاعهم فى الفرار من ميدان الشّرف والبطولة والجهاد فى سبيل الله تعالى بسبب مخالفتهم أمر النّبيّ ﷺ . وإنّ ربّ العزة ليتفضّل على هؤلاء المؤمنين جميعاً الّذين تولّوا يوم التقى الجمعان ، جمع المؤمنين وجمع المشركين فى أحد بالعفو عن زلّتهم وترك المؤاخذة على الذّنب الكبير الّذى ارتكبوه بالتّولّي يوم الزّحف .

وتقرّر الآية أنّ الله سبحانه وتعالى غفورٌ حليم . وقد عرفنا أنّ غفران الذّنب يتجاوز العفو عنه بمعنى ترك المؤاخذة عليه إلى ستره . فالله سبحانه وتعالى قد عفا عن المؤمنين وغفر لهم . والله سبحانه وتعالى حليمٌ حيث إنّه جلّ وعلا لا يعجل على من عصاه وخالف أمره وأمر حبيبه المصطفى ﷺ بالعقوبة ، وإن كان الذّنب الّذى ارتكب كبيراً كالفرار يوم أحدٍ علماً بأنّ عدد المسلمين آنذاك سبعمائة بينما عدد المشركين ثلاثة آلاف فكان الواحد من المؤمنين يقاتل زهاء أربعة من المشركين . والمعروف أنّ المؤمنين انتصروا على المشركين فى أوّل المعركة .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٩٥
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٢١٤
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٩٥

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

لاتكونوا كالّذين كفروا : لاتكونوا كالمنافقين الّذين ينهون إخوانهم عن الجهاد فى سبيل الله والضّرب فى الأرض فى طاعة الله وطاعة رسوله (١)

وقالوا لإخوانهم : أى عن إخوانهم (٢) وفى شأنهم (٣)

إذا ضربوا فى الأرض : فى طاعة الله وطاعة رسوله (٤) وأصل الضّرب فى الأرض الإبعاد فيها سيراً (٥)

أوكانوا غُزّى : أو كانوا غزاةً فى سبيل الله . والغزّى جمع غازٍ جمع على فُعّل كما يجمع شاهد شهّد وقائل قوّل (٦)

ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم : ليجعل الله ذلك حزناً فى قلوبهم وغمّا (٨)

تنهى الآية الكريمة المؤمنين الّذين آمنوا بالله تعالى وصدّقوا رسوله ﷺ عن أن يكونوا كالمنافقين الّذين يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر كعبدالله بن أبيّ وأضرابه من المنافقين (٩) الّذين يقولون ـــ عن إخوانهم فى الدّم أو القرابة الّذين يضربون فى الأرض ابتغاء مرضاة الله تعالى ومرضاة رسوله الكريم ، أو الّذين يقاتلون فى سبيل الله تعالى فيكرمهم الله تعالى بالموت مجاهدين فى سبيله جلّ وعلا أو بالشّهادة ـــ : «لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا»

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٩٧ والسّيرة النّبويّة ٣/٦٩
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤١٩
(٣) الجلالين
(٤) تفسير الطّبريّ ٤/٩٧ والسّيرة النّبويّة ٣/٦٩
(٥) تفسير الطّبريّ ٤/٩٧
(٦) تفسير الطّبريّ ٤/٩٧
(٧) تفسير الطّبريّ ٤/٩٧
(٨) تفسير الطّبريّ ٤/٩٧
(٩) تفسير الطّبريّ ٤/٩٧

والمعنى أنّ إخواننا فى الدمّ أو النّسب لو كانوا ماكثين عندنا قاعدين مع الخوالف ماماتوا وماقتلوا . وكأن الموت أو القتل لا يكونان مع البقاء وعدم الضرب فى الأرض وعدم الجهاد فى سبيل الله تعالى . وانظر إلى تقديم هؤلاء المنافقين الموت على القتل فى الذّكر ، لأنّهم مضطرّون لذكر الأمرين اللّذين أحلاهما مرٌّ فى اعتقادهم فلامناص من ذكرهما ومن ثمّ هم يقدّمون فى الذكّر أحب الأمرين إلى نفوسهم وأقربهما إلى قلوبهم ألا وهو الموت حتف الأنف وكما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ هذا القول إنّما يجرى على ألسنة المنافقين ليجعله الله سبحانه وتعالى حسرةً فى قلوبهم بسبب ضعف إيمانهم وحزناً فى نفوسهم بسب قلّة يقينهم ، إذ لا يزدادون بهذا القول وأمثاله إلّا حسرةً إلى حسرة وأسى إلى أسىً وحزناً إلى حزنٍ إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يحيى ويميت فلا يؤخّر البقاء وعدم السّفر فى الآجال ، ولا يقدم السّفر والإيغال فيه والضّرب فى الأرض ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى والجهاد فى سبيله تعالى لا يقدّم كلّ ذلك فى الآجال ولايقصّر فى الأعمار .

وفى التّذييل تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه بصير بما يعمل الّذين تخاطبهم الآية الكريمة . فعلى المنافقين أن يتوبوا إلى الله توبةً نصوحاً ، وعلى المؤمنين ألّا يكونوا كالّذين كفروا بل عليهم أن يضربوا فى الأرض ابتغاء مرضاة الله تعالى ومرضاة رسوله ﷺ وأن يجاهدوا فى سبيله جلّ وعلا وأن يصبروا ويصابروا ويرابطوا وأن يتّقوا الله تعالى لعلّهم يفلحون .

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

تستمر الآية الكريمة فى مخاطبة المؤمنين على غرار الآية الكريمة السّابقة . وتبدأ باللّام الّتى تفيد القَسم «ولئن» أمّا جواب القسم فاللّام ومابعدها فى القول : «لمغفرة من الله ...» والآية الكريمة تبيّن للمؤمنين أنّهم إن قتلوا مجاهدين فى سبيل الله تعالى أو ماتوا فى سفرٍ فى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ فإنّ مغفرة الله تعالى ورحمته تنتظرانهم وهما خيرٌ ممّا يجمع المتثاقلون عن الجهاد المتباطئون عن قتال الأعداء من حطام الدّنيا الفانى ومتاعها الزّائل . فعليكم إيّها المؤمنون ألّا تتخلّفوا عن الجهاد فى سبيل الله تعالى وألّا تتثاقلوا عن الضّرب فى الأرض ابتغاء مرضاة الله تعالى ومرضاة رسوله ﷺ . بل إنّ عليكم أيها المؤمنون أن تكونوا قمّةً فى الطموح فى مجال الخيرات . فبما أنّ أعلى الدّرجات الّتى يمكن للواحد منكم أن ينالها هي درجة الشّهادة ، فعليكم أن تحرصوا على العمل الّذى يؤدّى إليها ألا وهو الجهاد فى سبيل الله تعالى . ولهذا قدّمت الآية الكريمة هنا فى الذّكر القتل على الموت .

والحقيقة أنّ المقارنة بين ترتيب هذين الأمرين فى الآيتين الكريمتين بل وفى الآية الكريمة التّالية واردة ومفيدة . وقد عرفنا أنّ ذكر المنافقين فى الآية الكريمة السّابقة للموت قبل القتل دليلٌ على حرص القوم على حياة . وفى الآية الكريمة التّالية يتقدّم ذكر القتل والشّهادة فى سبيل الله تعالى لأنّ المؤمن المتّقى المجاهد فى سبيل الله تعالى أحرص النّاس على نيل الشّهادة . وهاهي ذى الآية الكريمة تقرّر ابتداءً امنيَّة هذا المجاهد بأن يقتل فى سبيل الله تعالى وتذكّر بهذا الشّرف العظيم من يحدّث نفسه بالجهاد فى سبيل الله تعالى . جاء فى سورة يونس (١) قوله تعالى : «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون» . فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التالية. قال تعالى :

(١) الآية ٥٨

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

تبيّنا ذكر الموت أوّلًا وذكر القتل آخراً ، ونستطيع أن نفهم أنّ هذه الآية الكريمة الّتى تخاطب المؤمنين فى المقام الأوّل كأنّها تقوم بتقرير الحقيقة العامّة القائمة من كون الّذين يموتون من المؤمنين ، فى الحضر أو فى السّفر ، أكثر عدداً من الذّين يقتلون مجاهدين فى سبيل الله تعالى . فالآية الكريمة تخبر المؤمنين بأنّ من مات منهم فى حضرٍ أو سفر فى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ومن قتل منهم مجاهداً فى سبيل الله تعالى فإنّ الجميع يُحْشَرون إلى الله تعالى يوم القيامة وسوف يجازى جلّ وعلا كلًّا بحسب عمله ونيّته . فعليكم أيّها المؤمنون أن تستبقوا الخيرات وأن تعلموا يقيناً أنّكم ستوفّون آجالكم وستصادفون ماكتبه الله لكم فلا معنى للتّثاقل والحرص على الحياة مادام الإقدام لا يقدّم أجلًا والإحجام لا يؤخّره .

والملاحظ أنّ اللّام من «ولئن» لام القسم على غرار الآية الكريمة السّابقة وأنّ اللّام من «لإلى الله تحشرون» واقعة هى الأخرى فى جواب القسم .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

فبمارحمةٍ من الله : فبرحمةٍ من الله . وما صلة (١) فى الكلام بمعنى التّطوّل (٢) والعرب تجعل ما صلةً فى المعرفة والنّكرة كما قال : فبما نقضهم ميثاقهم . والمعنى فبنقضهم ميثاقهم . وهذا فى المعرفة . وقال فى النّكرة : عمّا قليلٍ ليصبحنّ نادمين . والمعنى عن قليل (٣)

فظًّا : الفظّ الجافى (٤) سيّىء الخلق (٥)

غليظ القلب : قاسى القلب غير ذى رحمةٍ ولا رأفة (٦)

لانفضّوا من حولك : لتفرّقوا عنك (٧)

فاعف عنهم : فتجاوز ماناالك من أذاهم ومكروهٍ فى نفسك (٨)

واستغفر لهم : وادع ربّك لهم بالمغفرة لما أتوا من جرمٍ واستحقوا عليه عقوبةً منه (٩)

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٩٩
(٢) تفسير الطّبرىّ ١/١٤٠
(٣) تفسير الطّبرىّ ٤/٩٩ وانظر تفسير ابن كثير ١/٤٢٠
(٤) تفسير الطّبرىّ ٤/٩٩
(٥) الجلالين
(٦) تفسير الطّبرىّ ٤/٩٩
(٧) تفسير الطّبرىّ ٤/١٠٠
(٨) تفسير الطّبرىّ ٤/١٠٠
(٩) تفسير الطّبرىّ ٤/١٠٠

فإذا عزمت : فإذا صحّ عَزْمك بتثبيتنا إيّاك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك (١) عن عليّ بن أبى طالب قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم قال : مشاورة أهل الرّأى ثمّ اتّباعهم (٢) وعن أبى هريرة عن النّبيّ ﷺ قال : المستشار مؤتمن (٣)

إن الله يحبّ المتوكّلين : هم الرّاضون بقضائه والمستسلمون لحكمه فيهم ، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه (٤)

الآية الكريمة تبيّن بعض خلقه العظيم ﷺ بفضلٍ من الله تعالى ورحمة ، وهى تأخذ بسببٍ من قوله تعالى فى سورة التّوبة (٥) : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ماعنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم . فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلّا هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم»

إنّ المصطفى ﷺ ، برحمةٍ من الله تعالى عليه وعلى المؤمنين ، لان جانبه للمؤمنين ، وانخفض جناحه لهم ، ورقّ لسانه ، وطابت عشرته . ولو كان المصطفى ﷺ بعكس ذلك فجفّ لفظه وساء خلقه ـــ لاسمح الله ـــ لانفضّ المؤمنون من حوله وتفرّقت جماعتهم وانفرط عقدهم . والحقيقة أنّ الآية الكريمة تجسّد فى شخصيّة المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة للمؤمنين ، الصّفات الّتى ينبغى أن تتحلى بها القيادة الإسلامية إذا المعروف أنّ المصطفى ﷺ إنّما كان يرضى لله ويغضب لله .

وإنّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ ووسعت المصطفى ﷺ والمؤمنين ،

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/١٠١
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٢٠
(٣) تفسير ابن كثير ١/٤٢٠
(٤) تفسير الطّبرىّ ٤/١٠١
(٥) الآية ١٢٨ ، ١٢٩

لتوجّه المصطفى ﷺ إلى المزيد من نعوت القيادة الرّائدة الفاضلة ، فبعد أن تمّ تقرير ثلاثٍ من الصّفات وهي لين الجانب وسماحة الخلق ورقّة القلب يتمّ تقرير ثلاثٍ من الصّفات المتعدّية فى مجموعها وهي عفوه عمّن ظلمه وأساء إليه، وسؤاله الله تعالى المغفرة لأصحابه المؤمنين ، ومشاورتهم فى الأمر .

وبالنّظر إلى العفو عن المؤمنين ، ومعنى العفو ترك المؤاخذة بالذّنب ، يتبيّن أنّه يطلب منه ﷺ أن يفعل للمؤمنين منتهى مايستطيع أن يفعله بذاته الشّريفة لهم فيما يتعلّق بالأذى الّذى نال تلك الذّات والإساءة الّتى وصلت إليها . إنّ المطلوب منه عليه الصّلاة أن يقابل الإساءة لذاته الشّريفة بالإحسان وهو العفو . قال عبدالله بن عمرو : إنّى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة أنّه ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّابٍ فى الأسواق ولا يجزى بالسّيّئة السّيّئة ولكن يعفو ويصفح (١)

وبالنّظر إلى الصّفة التّالية : «واستغفر لهم» بمعنى ادع ربّك بالمغفرة لما أتوا من جرم واستحقّوا عليه عقوبةً منه ، وبالمقارنة بين هذه الصّفة والصّفة السّابقة عليها فى ضوء كون العفو ترك المؤاخذة على الذنّب وكون طلب المغفرة يعنى طلب ستر الذنّب أساساً فقد يكون ثمّة عفوٌ وتجاوزٌ عن المؤاخذة دون أن يكون ثمّة سترٌ على الذّنب واخفاءٌ له، يتبيّن من كلّ ذلك أنّ ثمّة تدرّجاً إلى الأعلى بشأن هاتين الصّفتين . إنّ صفة العفو المحدودة المدى ترتبط بالرّسول البشر محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . وإنّ صفة الغُفران الواسعة المدى ترتبط بمالك الملك ذى الجلال والإكرام . وهذا مظهرٌ من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد .

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٢٠ وتفسير الطّبرىّ ٤/١٠٠

ثمّ تأتى الصّفة الثّالثة الّتى تحقّق بها القيادة صفة الكمال وهي مشاورة ذوى الرّأي وأهل الحلّ والعقد . ومع أنّ المصطفى ﷺ رسولٌ من ربّ العالمين موحًى إليه فقد كان كثير الاستشارة لأصحابه تطييباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه (١)

والحقيقة أنّنا فى هذه الآية الكريمة بصدد درسٍ عظيم ينبغى على القيادة المسلمة أن تأخذه بعين الاعتبار ألا وهو طلب القيادة مشورة أصحاب الرّأى . إنّ ربّ العزّة يأمر حبيبه المصطفى ﷺ بذلك فى القول : «وشاورهم فى الأمر» ويقول تعالى عن المؤمنين (٢) : «وأمرهم شورى بينهم»

وإذا كانت الآية الكريمة قد أمرت بالشّورى فإنّها حدّدت أبعادها ووضعت نهايةً لها حينما أمرت ، فى حال الانتهاء من الشّورى والعزم على الأمر ، بالتّوكّل على الله تعالى . ومعنى التّوكّل على الله تنفيذ ماانتهى إليه التّشاور والرّضا التّام بقضاء الله تعالى والاستسلام الكامل لحكم الله تعالى فيه سواءٌ وافق ذلك هوى العباد أم خالفه . إنّ الحكم لله تعالى وإنّ الأمر كلّه لله تعالى .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ المتوكّلين . «إنّ الله يحبّ المتوكّلين» وقبل ذلك مرّ بنا قوله تعالى «والله يحبّ الصّابرين» «والله يحبّ المحسنين»

وهذه الآية الكريمة بدروسها العظيمة تعتبر تجسيداً لتجربة أحد فى الشّورى فهذه دروسٌ عمليّة وحكم وليدة التّجارب الفعليّة ، وهذه فوائد إضافيّة تكتسبها هذه الدّروس ، إذ أنّها دروس حصيلة تجربة ذات فصول متعدّدة رسمت أبعادها آياتٌ كريمة كثيرة .

(١) انظر في استشارة النبى ﷺ أصحابه تفسير ابن كثير ١/٤٢٠

(٢) سورة الشّورى ٣٨

إنّ المصطفى ﷺ الرّسول الموحى إليه الملهم الّذى يرى رؤيا ذات علاقةٍ بمصير المعركة المقبلة مع مشركي قريش ويعبّرها لأصحابه كما بيّن لهم رأيه عليه الصّلاة والسّلام فى اختيار المكان ميدان المعركة بأن يبقى المسلمون فى المدينة حتّى يملّ المشركون فيعودوا فإن تجرّأوا ودخلوا المدينة سهل اصطيادهم ، ويطرح عليه الصّلاة والسّلام الأمر لإبداء الرّأى والمشورة ويرى جمهور الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم غير رأيه عليه الصّلاة والسّلام حرصاً على الشّهادة وأملًا فى إدراك يومٍ كيوم بدرٍ الّذى نصر الله سبحانه وتعالى فيه المؤمنين نصراً مؤزّراً . وبذلك يحقّق المصطفى ﷺ عمليّاً معنى قوله تعالى : «وشاورهم فى الأمر»

ويأتى بعد ذلك دور تطبيق معنى قوله تعالى : «فإذا عزمت» ومعنى العزم اتّباع رأى أهل الرّأى بعد مشاورتهم وتنفيذ القرار الّذى انتهى إليه التّشاور وتحويله إلى عمل . وقد طبّق المصطفى صلّى الله عليه وسلم هذا المعنى وترجمه إلى عمل . إنّ التّشاور بشأن مكان المعركة قد انتهى وبقي دور التّنفيذ . وهاهو ذا بطل الأبطال محمّد ﷺ يدخل منزله ويلبس لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصّلاة . ويريد جمهور الصّحابة النّزول عن رأيهم بالخروج من المدينة إلى رأي المصطفى ﷺ بالبقاء فيها . ولكنّ دور التّشاور قد انتهى وأتى دور العزم ودور التّوكّل على الله تعالى . وقد قال عزّ من قائل « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحبّ المتوكّلين» وهاهو ذا بطل الأبطال ﷺ يقول (١) «ماينبغى للنّبيّ ﷺ إذا لبس لأمته أن يضعها حتّى يقاتل» صلّى الله عليك وسلّم يابطل الأبطال ويا أسوة المؤمنين الحسنة فى كلّ مجالٍ من مجالات الحياة .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٤٦

إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

الآية الكريمة تبيينٌ لمثل قوله تعالى فى هذه السّورة الكريمة (١) : «وما النّصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم» فإذا كان الخطاب فى الآية الكريمة السّابقة متّجهاً فى المقام الأوّل إلى المصطفى ﷺ وكان فى الآية الكريمة الأمر بالتّوكّل عليه جلّ وعلا ، فإن الخطاب فى الآية الكريمة التّالية هذه يتّجه إلى المؤمنين . والآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة إذا أراد للمؤمنين النّصر وكتبه لهم فلا غالب لهم وإن يخذلهم النّاس . وفى المقابل لو خذلهم الله تعالى بسبب فشلهم وتنازعهم فى الأمر وعصيانهم كما حدث فى أحد حينما وكلهم جلّ وعلا إلى أنفسهم بعد أنّ ترك الرّماة مواقعهم على الجبل ، فلن يستطيع مخلوق أن ينصرهم بعد أن خذلهم الله تعالى .

وفى التّذييل : «وعلى الله فليتوكّل المؤمنون» توجز الآية الكريمة مافصّل صدرها فعلى المؤمنين أن يتوكّلوا على الله تعالى وحده وأن يسألوه جلّ وعلا أن يفرغ عليهم صبراً ويثبّت أقدامهم فى ميدان القتال وأن ينصرهم على القوم الكافرين ، وعليهم أن يعدّوا لأعداء الدّين مااستطاعوا من قوّةٍ يرهبون بها عدوّ الله وعدوّهم وآخرين من دونهم لايعلمونهم الله تعالى يعلمهم كالمنافقين ومن لفّ لفّهم .

(١) الآية ١٢٦

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

سبب النّزول :ـــ

عن ابن عبّاس أنّ هذه الآية نزلت فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدرٍ فقال أناسٌ من أصحاب النبيّ ﷺ : فلعلّ النّبيّ أخذها فأنزل الله عزّ وجلّ : وماكان لنّبيّ أن يغلّ (١)

وماكان لنّبيّ أن يغلّ : وماكان لنبيّ أن يخون فى الغنيمة . والغُلول : تدرّع الخيانة وأغلّ أي صار ذا إغلالٍ أى خيانة . وغلّ يَغُلُّ إذا خان (٢)

ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة : ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً وفيئهم وغير ذلك يأت به يوم القيامة فى الحشر (٣)

تقرّر الآية الكريمة أنّه ماكان لنّبيّ أن يغلّ وماصحّ أنّ رسولًا من رسل الله تعالى أخفى من غنائم المسلمين شيئاً وفيئهم «الله أعلم حيث يجعل رسالته» فكيف أباح بعضهم لنفسه أن ينسب لخاتم الأنبياء والمرسلين وأشرفهم مثل هذه الخيانة . والعجيب أنّ بعضهم تجرّأ على مثل هذا القول وهو الّذى يعلم مالقّب به أهل مكّة المصطفى ﷺ قبل البعثة «الأمين»

(١) تفسير الطّبريّ ١٠٢/٤
(٢) أنظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٣٦٣
(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٤/٤

وتبيّن الآية الكريمة عقوبة الغلول يوم القيامة . إنّ من أخفى من غنائم المسلمين شيئاً سوف يأتى يوم القيامة بماغلّ . ثم توفّى كلّ نفسٍ ماكسبت وتعطى جزاء ماعملت كاملًا غير منقوص . وهم لايظلمون بحذف حسنة ولا بإضافة سيئة .

ونود أن ننبّه إلى جملة «يأت» فى القول : «ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة» فالمعروف أنّ هذه الجملة لا تستعمل فى القرآن الكريم إلّا دليلًا على البعد . إنّ على الغال أن يأتي يوم القيامة بما غلّ متحمّلًا فى ذلك أشدّ أنواع المشاقّ «وماظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» .

روى الإمام أحمد والبخاريّ ومسلم أنّ النّبيّ ﷺ استعمل رجلًا من الأزد يقال له ابن اللّتيبة على الصّدقة فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي إليّ فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال : مابال العامل نبعثه على عملٍ فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لي : أفلا جلس فى بيت أبيه وأمّه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والّذى نفس محمّد بيده لا يأتى أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته وإنّ بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر (١) ثمّ رفع يديه حتّى رأينا عفرة (٢) إبطيه ثمّ قال : اللّهمّ هل بلّغت ثلاثاً . اللفظ لأحمد (٣)

(١) يَعَرَت الشّاة أو المعْزى تَيْعِرُ وتَيْعَر يُعاراً : صاحت
(٢) العُفْرة والعَفْرة بضمّ العين وفتحها : شعر وسط الرّأس من الانسان.
(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٢/١

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

﴿١٦٢﴾

إنّ ذكر الرّضوان بحقّ المؤمنين فى الآية الكريمة يذكّرنا بمثل قوله تعالى (١) : «قل أؤنبّئكم بخيرٍ من ذلكم . للّذين اتّقوا عند ربّهم جنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطهّرةٌ ورضوانٌ من الله . والله بصيرٌ بالعباد» وبمثل قوله تعالى (٢) : «وَعَد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبةً فى جنّات عَدْنٍ ، ورضوانٌ من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم» .

والآية الكريمة تسأل فى إنكار لأنّ الجواب معروف : أفمن اتّبع رضوان الله تعالى وسعى فى مرضاة الله تعالى فعمل وفق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم سنّة أشرف الأنبياء والمرسلين فى كلّ شئون حياته ومنها الغنيمة والفىء وأراد بذلك وجه ربّه الأعلى فقاده ذلك إلى الجنّة ونعيمها المقيم وتوّج كلّ ذلك النّعيم برضوان الله تعالى الّذى هو أكبر من كلّ نعيم ، أفمن اتّبع رضوان الله تعالى كمن باء بسخطٍ من الله تعالى ورجع بما يستحقّ من غضبٍ لله تعالى عليه ومأواه جهنم ومثواه النّاروبئس المصير والقرار ؟ هل يستوى أصحاب الجنّة وأصحاب النّار ؟ والجواب بطبيعة الحال معروف . لا يستويان .

والملاحظ أنّه بشأن المؤمنين المتّقين اكتفى بذكر الرّضوان الّذى يكبر كلّ نعيم لأنّه رضوانٌ من الله تعالى فلا سخط بعده ، وبذلك يدخل تحته كلّ نعيمٍ يسبقه . وفى المقابل كان ثمّة تفصيلٌ بشأن عقاب الكافرين وعذابهم . وإنّ ذكر التّفاصيل هنا منبّهٌ لمايقابله من نعيم للمتّقين سكتت عنه الآية الكريمة اكتفاءً بالنّعيم الأكبر ألا وهو رضوان الله تعالى .

وإنّ ذكر الاتّباع فى حق المؤمنين يذكّرنا بكمال هذا الدّين وينبّهنا إلى عدم الابتداع فيه وقد قال عزّ من قائل (٣) : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا» .

(١) سورة آل عمران ١٥
(٢) سورة التّوبة ٧٢
(٣) سورة المائدة ٣

هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّه لا يستوى أصحاب النّار وأصحاب الجنّة أصحاب الجنّه هم الفائزون . وبيّنت هذه الآية الكريمة أنّ المؤمنين المتّقين أصحاب درجاتٍ فى الجنّة .، وأنّ الكافرين المجرمين أصحاب دركاتٍ فى النّار . فكما أنّ المؤمنين يتفاوتون علوّاً فى درجات الجنّة يتفاوت الكافرون نزولًا فى دركات النّار . وتبيّن الآية الكريمة أنّ الله بصيرٌ بما يعمل كلٌّ من الفريقين وسيجازى كلًا بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر . إنّ الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

والآية الكريمة تأخذ بسببٍ من مثل قوله تعالى (١) : «ولكلٍّ درجاتٌ ممّا عملوا وماربّك بغافلٍ عمّا يعملون» وقوله تعالى (٢) : «ولكلٍ درجاتٌ ممّا عملوا وليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون» وقوله تعالى (٣) : «من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثمّ جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمنٌ فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلًا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك وماكان عطاء ربّك محظورا . انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعضٍ وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلا» .

(١) سورة الأنعام ١٣٢
(٢) سورة الأحقاف ١٩
(٣) سورة الأسراء ١٨ – ٢١

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

لقد منّ الله على المؤمنين : لقد تطوّل الله على المؤمنين (١)

ويزكّيهم : ويطهّرهم من الذّنوب (٢)

الكتاب : كتاب الله الّذى أنزله عليه (٣)

والحكمة : السّنّة الّتى سنّها الله جلّ ثناؤه للمؤمنين على لسان رسول الله ﷺ وبيانه لهم (٤)

لفى ضلالٍ مبين : فى جهالةٍ جهلاء ، وفى حيرةٍ عن الهدى عمياء لا يعرفون حقّاً ولايبطلون باطلا (٥)

تبين الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد منّ على المؤمنين وتفضّل على المسلمين ، إذ بعث جلّ وعلا فيهم وأرسل إليهم رسولًا من أنفسهم ، فهو من البشر وليس من الملائكة مثلًا لأنّ البشر إنّما يألفون البشر وينتفعون بهم ويستفيدون منهم ويختلطون بهم ويتعاملون معهم . ثمّ إنّ هذا الرّسول الكريم من العرب كي يسهل إيصال الرّسالة ونقل الأمانة وكي يقوم أولئك الأمّيّون الّذين أكرمهم الله تعالى ببعث الرّسول فيهم بحمل هذه الرّسالة بدورهم ابتداءً وأداء الأمانة لعباد الله تعالى الّذين يقومون هم بذات الدّور حتّى يظهر الله تعالى ـــ كما وعد ووعده الحقّ ـــ هذا الدّين على الدّين كلّه فإنّ ممّا خصّ الله تعالى به هذا الرّسول الكريم أن جعل رسالته عامّةً للنّاس كافّة . جاء بشأن إرسال الرّسول من قومه قوله

(١) تفسير الطّبريّ ١٠٧/٤
(٢) تفسير الطّبريّ ١٠٧/٤
(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٤
(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٤
(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٤

تعالى (١) : «وما أرسلنا من رسولٍ إلّا بلسان قومه ليبيّن لهم فيضلّ الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم» وقد استتبع ذلك كون القرآن الكريم قد نزل بلسانٍ عربّي مبين وليس أعجميّاً وهذا مظهر آخر من مظاهر منّ الله تعالى وفضله على المؤمنين . وقد جاء فى سورة فصّلت (٢) قوله تعالى : «ولو جعلناه قرآناً أعجميّاً لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجميٌ وعربّي ؟ قل هو للّذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والّذين لا يؤمنون فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً . أولئك ينادون من مكانٍ بعيد» . وما أكثر الآيات الكريمات الّتى نصّت على عموم رسالته ﷺ ومن ذلك قوله تعالى (٣) : «وما أرسلناك إلّا كافّةً للنّاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون»

وإذا كانت لفظة المؤمنين هنا عامةً ويصحّ أن تشمل الأمّيّين وغير الأمّيين فإنّ آية سورة الجمعة المشابهة تنصّ على الأمّيّين من العرب بخاصّة باعتبار العرب مادّة الإسلام الأولى . قال تعالى (٤) : «هو الّذى بعث فى الأمّيّين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكم وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين»

وتنصّ الآية الكريمة على عددٍ من مظاهر منّ الله تعالى على المؤمنين ببعث هذا الرّسول الكريم فيهم .

إنّ المصطفى ﷺ يتلو عليهم آيات الكتاب العزيز الّذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد .

وإنّ المصطفى ﷺ ليزكّى المؤمنين ويطهّرهم من ذنوبهم وخطاياهم وذلك بتوجيههم الوجهة الصّحيحة فى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وإرشاد المذنبين منهم إلى التّوبة النّصوح إلى الله تعالى الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ويعلم مايفعلون .

وإنّ المصطفى ﷺ ليعلّم المؤمنين الكتاب العزيز وقد قال تعالى(٥) : « وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون »

وإنّ المصطفى ﷺ ليعلّم المؤمنين الحكمة ، بمعنى السّنّةَ النّبويّة المطهّرة الّتى أوحاها الله تعالى إليه كما أوحى القرآن الكريم سواءً بسواء . وقد تجلّت هذه السّنّة النّبويّة المطهّرة فى أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته . والمراد بتقريراته ﷺ ماأقرّ عليه أصحابه دليلًا على الرّضا فعلى سبيل المثال أكل خالد الضّبّ على مائدة رسول الله ﷺ مع أنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يأكله لأنّ نفسه ﷺ تعافه . والمراد بالصّفات شمائله ﷺ .

(١) سورة ابراهيم ٤
(٢) الآية ٤٤
(٣) سورة سبأ ٢٨
(٤) سورة الجمعة ٢
(٥) سورة النحل ٤٤

وتقرّر الآية الكريمة أنّ هؤلاء المؤمنين الّذين يمثّلون قمّة المؤمنين وصفوتهم والّذين قلّما يجود بمثل بعضهم الزّمان كانوا حتّى وقتٍ قريب قبل الإسلام وفى الجاهليّة فى ضلالٍ مبين ، وعدولٍ عن الصّراط المستقيم واضح ، فى جاهليّةٍ جهلاء وضلالةٍ عمياء . وإنّما يعرف بعض مَنّ الله تعالى على المؤمنين ببعث هذا الرّسول الخاتم من عرف الجاهليّة . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا شكر النّعمة وأن يوفّقنا للعمل من أجل هذا الدّين الّذى رضيه جلّ وعلا لعباده وأن يتقبل منّا صالح أعمالنا إنّه على كلّ شيءٍ قدير وبالإجابة جدير . آمين .

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

أو لمّا أصابتكم : أو حين أصابتكم أيّها المؤمنون (١)

مصيبةٌ : وهي القتلى الّذين قتلوا منهم يوم أحد والجرحى الّذين جرحوا منهم بأحد . وكان المشركون قتلوا منهم يومئذٍ سبعين نفراً (٢)

قد أصبتم مثليها : عن ابن عبّاس : يقول إنّكم أصبتم من المشركين يوم بدرٍ مثلي ما أصابوا منكم يوم أحد (٣) وذلك أنّهم قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين (٤)

أنّى هذا : من أيّ وجه هذا ومن أين أصابنا هذا الّذى أصابنا (٥)

فى الآية الكريمة نوعٌ من تسلية المؤمنين والتّسرية عنهم بتذكيرهم بفضل الله تعالى عليهم فى بدر حينما نصرهم اللهتعالى وهم أذلّة فقتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين ، فعلى المؤمنين أن يذكروا هذه النّعمة لعلّهم يقومون بما يجب عليهم تجاه شكر الله تعالى عليها ، وألّا ينسوها فى غمرة المصيبة الّتى أصابتهم ، وهي نصف المصيبة الّتى أصابت المشركين فى بدر إذ ليس من المؤمنين بفضل الله تعالى أسرى فى أحد .

(١) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٤
(٢) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٤
(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٩/٤
(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٤
(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٤

وحينما يسأل المؤمنون فى ذهولٍ ، بسبب ما أصابهم وحلّ بهم فى أحد : أنّى هذا ؟ من أيّ وجه هذا ، ومن أين أصابتنا هذه المصيبة ، وحلّ بنا هذا الخذلان ونحن المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله تعالى وفينا رسول الله ﷺ الّذى يأتيه الوحي من السّماء بينما الخصوم مشركون بالله تعالى محاربون لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ ؟ حينما يسأل المسلمون عن السّبب فيما أصابهم وحلّ بهم يجيء الجواب على الفور : قل هو من عند أنفسكم . قل يامحمّد هذا الّذى أصابكم أيّها المؤمنون فى أحدٍ إنّما هو من عند أنفسكم وبسبب عصيانكم أمر النّبيّ ﷺ بلزوم مكانكم أيّها الرّماة فى الجبل وعدم تركّكم مراكزكم بحالٍ من الأحوال وبسبب اختلافكم فى هذا الأمر ممّا أدّى إلى ذهاب ريحكم وحلول الدّائرة عليكم بعد أن تحقّق لكم النّصر وبعد أن أراكم الله تعالى ماتحبون .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير . إنّه جلّ وعلا القادر على كلّ شيءٍ هو الّذى نصركم فى بدر ، وهو الّذى نصركم أوّل الأمر فى أحد ، وهو الّذى عاجلكم بالعقوبة بسبب مخالفتكم أمر النّبيّ ﷺ فجعل الدّائرة تدور عليكم بعد أن دارت على المشركين . إنّه جلّ وعلا لا يسأل عمّا يفعل وأنتم تسألون . إنّكم أنتم السّبب فى المصيبة الّتى حلّت بكم ولا تنسوا فى غمرة الأسى والحزن فضلي عليكم فى بدر حينما أصبتم من المشركين مِثْلي المصيبة الّتى حلّت بكم فى أحد .

إنّ البشريّة تقف مشدوهة أمام الحكمة الإلٰهيّة والقدرة السّماويّة الّتى تجلّت فى كون القتلى والأسرى فى بدر سبعين بالتّمام والكمال ، وكون الشّهداء فى أحد سبعين بالتّمام والكمال . فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيء الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ ما أصاب المؤمنين إنّما كان من عند أنفسهم وبسبب عصيانهم أمر رسول الله ﷺ . وتبيّن هذه الآية الكريمة التّالية أنّ ما أصاب المؤمنين فى أحد يوم التقى الجمعان ، جمع المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ وجمع المشركين بقيادة أبي سفيان إنّما كان بإرادة الله تعالى ، وبقضائه وقدره ، وعلمه وإرادته جلّ وعلا ، وإنّما كانت المصيبة كذلك من أجل أن يعلم جلّ وعلا علم ظهورٍ المؤمنين الصّادقين فى إيمانهم وجهادهم الصّابرين لما أصابهم فى سبيل الله تعالى من قتلٍ وجرح ، ومن أجل أن يعلم جلّ وعلا علم ظهورٍ أيضاً المنافقين الّذين تحدّثت عنهم الآية الكريمة التّالية .

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ
فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

أو ادفعوا : قال ابن عبّاس وعكرمة وسعيد بن جبير والضّحّاك وأبوصالح والحسن والسّدّيّ : يعنى كثّروا سواد المسلمين (١) عن ابن جريج : أو ادفعوا . قال : بكثرتكم العدوّ إن لم يكن قتال (٢)

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ ماأصاب المؤمنين بإذن الله تعالى فى أحدٍ من أجل أن يعلم الله تعالى علم ظهورٍ المؤمنين . وهذه الآية الكريمة تذكر الشّقّ الثّاني المكمل لذلك العلم وهو أن يعلم الله تعالى علم ظهورٍ الّذين نافقوا . ويلفت انتباهنا الاختلاف فى التّعبيرين «المؤمنين» «الّذين نافقوا» ممّا يعتبر معمّقاً لاختلاف صفات الفريقين . ثمّ إنّ هذا التّعبير المصدرّ باسم الموصول «الّذين نافقوا» موطّىء لاسم الموصول فى أوّل الآية الكريمة التّالية . وقد ظهر للملأ من مصيبة أحد حقيقة كلٍّ من المؤمنين والمنافقين .

وتعود الآية الكريمة إلى ماقال المنافقون على لسان زعيمهم عبدالله بن أبيّ ابن سلول ردّاً على الّذين نهوهم عن خذلان المصطفى ﷺ فى ذلك الظّرف العصيب . قال ابن إسحاق : حتّى إذا كانوا بالشّوْط ـــ بين المدينة وأحد ـــ انخزل عنه عبدالله بن أبيّ ابن سلول بثُلُث النّاس وقال : أطاعهم وعصانى ماندرى علام نَقْتُلُ أنفسنا ههنا أيّها النّاس ؟ فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النّفاق والرّيْب . وأتبعهم عبدالله بن عمرو بن حَرَام أخو بنى سَلِمة يقول : ياقوم أذكّركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيّكم عندما حضر من عدوّهم فقالوا : لو نعلم أنّكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنّا لا نرى أنّه يكون قتال .

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٢٥
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/١١١

قال : فلمّا استَعْصَوْا عليه وأَبَوْا إلّا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فَسَيُغْنِي الله عزّ وجلّ عنكم نبيّه ﷺ (١)

إنّ عبدالله بن عمرو بن حَرَام يطلب من عبدالله بن أبيّ وجماعته أن ينضمّوا إلى جيش المسلمين وأن يلحقوا بالمصطفى ﷺ ، وأن يكثّروا سواد المسلمين ويدفعوا بكثرتهم القتال .

ويكون من المنافقين جوابهم العجيب الغريب : «لو نعلم قتالًا لاتّبعناكم» . وكأنّ أباسفيان وذلك الجيش الكبير الموتور رجاله ونساؤه فى بدرٍ لم يأت من مكّة ولم يقطع تلك المسافة الشّاسعة ويتكبّد تلك المشقّة الكبيرة والنّفقات المادّية الباهظة حتّى إنّهم وجهوا القافلة الّتى نجت فى بدرٍ من أجل تجهيز الجيش ، كأنّ أباسفيان وذلك الجيش لم يأتوا من أجل القتال . فهل جاءوا فى عرف المنافقين للنّزهة ؟ إنّ المنافقين يعلمون أنّ القوم إنّما جاءوا من أجل القتال وأخذ الثّأر وأنّه سيكون ثمّة قتال ولكنّ المنافقين حينما قالوا ذلك كانوا كما بيّنت الآية الكريمة أقرب يومئذٍ للكفر منهم للإيمان ، وكانوا يقولون بأفواههم عكس ما فى قلوبهم وغير مافي قلوبهم .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بما يكتم أولئك المنافقون .

وإنّ الآية الكريمة التّالية لتكشف عن جانبٍ آخر من أقوال المنافقين وأعمالهم الّتى ليس فيها شيءٌ من خير للإسلام والمسلمين بل فيها الشّرّ كلّ الشّرّ .

(١) السّيرة النّبوية لابن هشام ٣/٨

ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

فادرءوا : فادفعوا . من قول القائل : درأت عن فلانٍ القتل بمعنى دفعت عنه . أدرؤه درأً . ومنه قول الشاعر :

تقول وقد درأت لها وضيني أهذا دِينه أبداً ودِيني (١)

عن جابر بن عبدالله أنّ الآية نزلت فى عبدالله بن أبيّ ابن سلول (٢)وأصحابه (٣)وسبق أن عرفنا بشأن الآية الكريمة السّابقة موقف عبدالله بن أبيّ وأصحابه من عبدالله بن عمرو بن حرام السُّلميّ . وتضيف بعض الرّوايات أنّ هذا المنافق طلب من عبدالله بن عمرو بن حرام أن يطيعه هو وقومه وأن يرجعوا معهم إلى المدينة : «ولئن أطعتنا لترجعنّ معنا» (٤) : «ولئن أطعتمونا لترجعنّ معنا» (٥) ولولا أن تولّى الله سبحانه وتعالى هذا المؤمن وقومه المؤمنين لأطاعوا ذلك المنافق ، وقد أشارت إلى شيء من هذا الّذى جرى الآية الكريمة من هذه السّورة الكريمة (٦) : «إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما وعلى الله فليتوكّل المؤمنون» وسبق أن عرفنا أنّ الطّائفتين هما بنو سَلِمةَ ابن جشم بن الخزرج وبنو حارثة بن النّبيت من الأوس وهما الجناحان (٧)

(١) تفسير الطّبريّ ١١٢/٤ والوضين بطان عريضٌ منسوجٌ من سيور أو شَعَر أو لا يكون إلّا مِن جِلْد .
(٢) تفسير الطّبريّ ١١٢/٤ وتفسير ابن كثير ٤٢٥/١
(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٥/١
(٤) تفسير الطّبريّ ١١١/٤ وص ٤٨
(٥) تفسير الطّبريّ ١١١/٤
(٦) الآية ١٢٢
(٧) تفسير الطّبريّ ٤٨/٤ والسّيرة النبوية لابن هشام ٥٨/٣

وهذه الآية الكريمة تشير إلى تمنّى هؤلاء المنافقين لو أنّ المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين استشهدوا فى سبيل الله تعالى قد أطاعوهم فعادوا إلى المدينة ولم يلحقوا بجيش المصطفى ﷺ ولم يجاهدوا فى سبيل الله تعالى .

والآية الكريمة تبدأ باسم الموصول «الّذين» الّذى موضعه النّصب على الإبدال من اسم الموصول فى القول : «وليعلم الّذين نافقوا» فالكلام موصولٌ بسابقه . وانظر إلى جملة «وقعدوا» المعترضة والّتى نوّد أن نتحدث عنها قليلًا باعتبارها مظهراً من مظاهر عظمة هذه اللّغة الشّريفة وباعتبار استعمالها هنا مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . إنّ عبقريّة اللّغة العربيّة تتجلّى فى قدرتها العجيبة على التّعبير عن دقائق المعانى . وإنّها لتتجاوز ذلك إلى ارتياد بعض الآفاق البعيدة والميادين العجيبة ، ومن هذه الآفاق أو الميادين قدرة هذه اللّغة الشّريفة على رصد الحركة وتعيين الاتّجاه . وتفسير ذلك أنّ ثمّة فرقاً جوهرياً بين جملتى جلس وقعد مثلًا فى الدّلالة على اتّجاه الجالس المخالف لاتّجاه القاعد . إنّ من كان مضطجعاً يجلس ومن كان قائماً يقعد . وبهذا تدلّ جملة جلس على الانبعاث والنّشاط . بينما تدلّ جملة قعد على عكس ذلك ، إضافةً إلى الدّلالة على الرّغبة فى القيام أو النّهوض بشأن جملة جلس ، وعلى الرّغبة فى الراحة والإخلاد إلى الكسل أو النّوم بشأن جملة قعد . إنّ هذه الملابسات والمعانى توحى بها جملة : «وقعدوا» فى الآية الكريمة .

كما تشير الآية الكريمة إلى حرص المنافقين أن يطيعهم المؤمنون فى التخلف عن الجهاد وهاهم أولاء يقولون لإخوانهم وأبناء عشيرتهم الّذين أصابهم القرح لو أطاعنا إخواننا وأبناء عشيرتنا حينما أمرناهم بأن يطيعونا وأن يعودوا إلى المدينة ويتخلّفوا عن رسول الله ﷺ لما قتلوا .

ولمّا كان المنافقون أحرص النّاس على حياة وأشدّ النّاس فراراً من الموت وأسبابه مع أنّه مدركهم حينما يحين أجلهم فإنّ الآية الكريمة تطلب منهم أن يدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين فى زعمهم أنّ من استشهد فى أحد ورفض أن يطيعهم لو أطاعهم لما قتل .

وعلى غرار حديثنا السّابق بشأن الآيات الكريمات من السّورة ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨ ، عن الموت والقتل وكون القتل أقرب إلى المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى وكون الموت أقرب إلى المنافقين ، يكون حديثنا هنا : إنّ حديث المنافقين عن القتل باعتبار المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى . وإنّ ذكر الموت فى الآية الكريمة باعتبار المنافقين .

إنّ الموت الّذى يفرّ منه المنافقون ملاقيهم عاجلًا أو آجلًا . فالأولى بهم أن يعودوا إلى الله تعالى وأن يتوبوا إليه جلّ وعلا توبةً نصوحا .

وقد ثبت فى الصّحيحين وغيرهما أنّ أنّ أباجابر وهو عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارىّ رضى الله عنه قتل يوم أحدٍ شهيداً . قال البخاريّ : وقال أبوالوليد عن شعبة عن ابن المنكدر سمعت جابراً قال : لمّا قتل أبى جعلت أبكى وأكشف الثّوب عن وجهه فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونى والنّبيّ ﷺ لم ينه فقال النّبيّ ﷺ : لا تبكه ــ أو ماتبكيه ــ مازالت الملائكة تظلّه بأجنحتها حتّى رفع (١) وروى الإمام أحمد عن جابر أنّه قال : قال لى رسول الله ﷺ : أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمنّ فقال له أردّ إلى الدّنيا فأقتل فيك مرّةً أخرى قال : إنّى قضيت أنّهم إليها لا يرجعون . تفرّد به أحمد من هذا الوجه (٢)

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٦/١
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٦/١

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة قعود المنافقين عن الجهاد فى سبيل الله تعالى واعتراضهم على الّذين رفضوا أن يطيعوهم فلحقوا برسول الله ﷺ فى أحد فقتلوا وقولهم لو أنّ الشّهداء أطاعوهم ماقتلوا حرصاً من أولئك المنافقين على الحياة وفراراً من الموت الّذى تقرّر الآية الكريمة أنّه ملاقيهم . وهذه الآية الكريمة التّالية تضرب عن المنافقين الذّكر صفحاً لأنّهم أهون من أن يؤبه لهم ، وتتحوّل الآية الكريمة إلى مخاطبة المصطفى ﷺ فى تبيين منزلة الشّهداء عند ربّهم ، يستوى فى ذلك شهداء أحد السّعداء والشّهداء السّعداء سواهم ، فتقول الآية الكريمة : لا تحسبن أيّها الرّسول الكريم الّذين قتلوا مجاهدين فى سبيل دين الله تعالى أمواتاً ولا تظنّنّهم قد أدركتهم الوفاة كما يبدو لكلّ من نظر إليهم ، بل هم أحياء عند ربّهم يرزقون ، «قد أحييتُهم فهم عندى فى رَوْح الجنّة وفضلها» (١) يحسّون ويتلذّون وينعمون .

روى مسلم فى صحيحه عن مسروق قال : إنّا سألنا عبدالله بن مسعود عن هذه الآية : ولا تحسبنّ الّذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون . فقال : أما إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : أرواحهم فى جوف طيرٍ خضر لها قناديل معلّقة بالعرش تسرح من الجنّة حيث شاءت ثمّ تأوى ألى تلك القناديل ، فاطّلع عليهم ربّهم إطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ فقالوا : أيّ شيءٍ نشتهى ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا . ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات فلمّا رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا ياربّ نريد أن تردّ أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرّة أخرى فلمّا رأى أن ليس لهم حاجةٌ تركوا (٢) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لمّا أصيب إخوانكم يوم أحدٍ جعل الله أرواحهم فى أجواف طيرٍ خضرٍ ترد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهبٍ فى ظلّ العرش . فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله بنا لئلّا يزهدوا فى الجهاد ولا يَنكَلّوا عن الحرب فقال الله عزّ وجلّ : أنا أبلّغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات : ولا تحسبنّ الّذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون . ومابعدها (٣)

(١) السّيرة النّبوية لابن هشام ٣/٧٢
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٢٦ والسّيرة النّبوية لابن هشام ٣/٧٣
(٣) تفسير ابن كثير ١/٤٢٧ والسّيرة النّبوية لابن هشام ٣/٧٣

ويقول ابن كثير رحمه الله تعالى رحمة واسعة [1] : «وكأنّ الشّهداء أقسام ، منهم من تسرح أرواحهم فى الجنّة ، ومنهم من يكون على هذا النّهر «يريد ما جاء فى الحديث الّذى رواه أحمد : الشّهداء على بارقٍ نهرٍ بباب الجنّة فيه قبّة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنّة بكرةً وعشيّاً[2]» بباب الجنّة ، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النّهر ، فيجتمعون هنالك ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح والله أعلم . وقد روينا فى مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكلّ مؤمنٍ بأنّ روحه تكون فى الجنّة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها وترى مافيها من النّضرة والسّرور وتشاهد ماأعد الله لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثةٌ من الائمّة الأربعة أصحاب المذاهب المتّبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمّد بن إدريس الشّافعيّ رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزّهريّ عن عبدالرّحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : نسمة المؤمن طائرٌ يعلق فى شجر الجنّة حتّى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه قوله : يعلق أي يأكل . وفى هذا الحديث : إنّ روح المؤمن تكون على شكل طائر فى الجنّة . وأمّا أرواح الشّهداء فكما تقدّم فى حواصل طيرٍ خضرٍ فهي كالكواكب بالنّسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنّان أن يميتنا على الإيمان»

قال ابن إسحاق : وحدّثنى عمرو بن عبيد عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : والّذى نفسى بيده مامن مؤمنٍ يفارق الدّنيا يحبّ أن يرجع إليها ساعة من نهارٍ وأنّ له الدّنيا ومافيها إلّا الشّهيد فإنّه يحبّ أن يردَّ إلى الدّنيا فيقاتل فى سبيل الله فيُقْتَلَ مرّةً أخرى [3]

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٧/١

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤٢٧/١ والسّيرة النّبوية لابن هشام ٧٣/٣

(٣) السّيرة النّبوية لابن هشام ٧٤/٣

فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

الشّهداء السّعداء الّذين أحياهم الله تعالى فهم يُرْزقون عنده غدوّاً وعشيّاً هم فرحون بما آتاهم الله سبحانه وتعالى من فضله سعداء بما أعطاهم جلّ وعلا من واسع كرمه وفائض جوده ، وهم كذلك يستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ويسرّون بالّذين تركوهم وراءهم وساروا وفق سنّتهم من الجهاد فى سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس إلى أن يكرمهم ربّهم جلّ وعلا بما أكرم به السّابقين من الشّهداء السّعداء المستبشرين المسرورين بقدوم إخوانهم عليهم ولحاق الشّهداء السّعداء بهم ، إنّهم فرحون بما آتاهم الله تعالى من فضله ويستبشرون بأولئك الّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، «يستبشرون لهم بأنّهم لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» (١)

إنّ الشّهداء السّعداء يستبشرون بأنّهم لا خوفٌ عليهم ولا على الّذين يلحقون بهم ممّا يستقبلونه بعد الوفاة فقد فازوا برضا الله تعالى وأمنوا عذابه ، وبأنهم لايحزنون على ماتركوا وراءهم فى الدّنيا من أهلٍ وولدٍ ومال . إنّ النّعيم المقيم الّذى هم فيه والّذى تجلّى فيما رزقهم الله تعالى فى الجنّة بسبب صبرهم ومصابرتهم وجهادهم فى سبيل الله تعالى حتّى قتلوا ، وبسبب ما آتاهم الله تعالى من فضله فى الجنّة الّتى فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إنّ كلّ ذلك النّعيم المقيم الّذى يلقاه الشّهداء السّعداء يجعلهم لا يحزنون على ماتركوا وراءهم فى الحياة الدّنيا من أهل وولدٍ ومالٍ ونعيم . إنّ النّعيم الحقيقيّ المقيم فى الجنّة ، وقد آتاهم الله تعالى إيّاه فلا مكان للحزن كما أنّه لا مكان للخوف . ولله الحمد والمنّة .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/ ١٥

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّ أولئك الشّهداء السّعداء يستبشرون بنعمة الله تعالى عليهم ، ويفرحون بالثّواب الجزيل الّذى يكرمهم الله تعالى به ، ويسرّون للفضل من الله تعالى الّذى ليس عليه من مزيد ، وزيادة الكرامة الّتى يخصّهم ويحبوهم بها ، كما أنّهم يستبشرون بأنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين بل يأجرهم ويثيبهم ويزيدهم من فضله . وهؤلاء الشّهداء السّعداء قد جمعوا بفضل الله تعالى بين الإيمان وبين القتل فى سبيل الله تعالى ، وقد جمع الله تعالى لهم بين ثواب الإيمان وثواب الشّهادة فى سبيله جلّ وعلا وزادهم من فضله الّذى ليس له حدود .

والآية الكريمة التّالية تبيّن المعنيّين من المؤمنين على جهة التّحديد .

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

إنّ المؤمنين الّذين لا يضيع الله سبحانه وتعالى إيمانهم بل يثيبهم عليه : «ولا يظلم ربّك أحدا» (١) هم فى المقام الأوّل أولئك الّذين استجابوا لله تعالى الّذى أمرهم بالصّبر والمصابرة والمرابطة وتقواه جلّ وعلا ، والّذين استجابوا للمصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين الّذى أمرهم فى اليوم التّالى ليوم أحد الّذى أصابهم فيه القرح ، الجراح والكلوم ، بمطاردة المشركين ، إظهاراً لعزّة الإسلام وإعلاناً عن قوّة المسلمين ، وتبييناً بأنّ ما أصابهم بالأمس فى أحد من قتل الأحباب وألم السّلاح لم يفلّ من حدهّم ، ولم يضعف من قوّتهم ، ولم يثن من عزائمهم ، وإعلاماً للمشركين بأنّ القوّة المؤمنة بقياة المصطفى ﷺ وراءهم ، وبالمرصاد لهم ، وسيكون لها بإذن الله تعالى الظّفر عليهم ، وبأنّها مستعدّة لبذل المزيد ممّا تستطيع من نفسٍ ونفيس فى سبيل الله تعالى ومن أجل إعلاء كلمة الله تعالى ورفع راية لا إله إلّا الله محمّدٌ رسول الله فى الخافقين .

وتخصّ الآية الكريمة بالأجر العظيم الّذين أحسنوا من أولئك المؤمنين واتّقوا الله تعالى حقّ تقاته . وقد بيّن الحديث النّبويّ الشّريف معنى الإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٢)

ونودّ أن نقتبس من هذا الشّأن بعض النّصوص الّتى تبيّن أبعاد القرح الّذى أصاب المؤمنين وفضل الله تعالى عليهم بأن استجابوا لله تعالى ولرسوله الكريم بعد أن أصابهم يوم أحد ماأصابهم ، فخرجوا فى اليوم التّالى يطلبون العدوّ . « قال ابن إسحاق : وكان يوم أحد يوم السّبت للنّصف من شوّال فلمّا كان الغد من يوم الأحد لستّ عشرة ليلة مضت من شوال أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ فى النّاس بطلب العدوّ ، وأذّن مؤذّنه ألّا يخرجنّ معنا أحد إلّا أحدٌ حضر يومنا بالأمس ، فكلّمه جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام (٣) فقال : يارسول الله ، إنّ أبى كان خلّفنى على أخواتٍ لي سبع وقال : يابنيّ إنّه لا ينبغى لي ولا لك أن نترك هؤلاء النّسوة لا رجل فيهنّ ، ولست بالّذى أو ثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى فتخلّف على أخواتك فتخلّفت عليهنّ ، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه . وإنّما خرج رسول الله ﷺ مُرْهباً للعدوّ ، وليبلغهم أنّه خرج فى طلبهم ليظنّوا به قوّة ، وأنّ الّذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوّهم .

(١) سورة الكهف ٤٩

(٢) صحيح البخاريّ ١/٢٠

(٣) سبق أن عرفنا أنّ عبدالله بن عمرو بن حرام قد أكرمه الله تعالى بالشّهادة في أحد (انظر السيرة النّبويّة ٣/٨٠) وهو الذى طلب من عبدالله بن أبيّ ابن سلول شيخ المنافقين عدم التّخلّى عن رسول الله ﷺ وهو الّذى طلب منه ابن سلول أن يطيعه ويتخلّى هو الآخر وقومه عن رسول الله ﷺ فثبّت الله تعالى عبدالله بن عمرو بن حرام وأكرمه بالشهادة وثبّت الطائفتين اللّتين همّتا أن تفشلا (أنظر السّيرة النّبويّة ٣/٨ وصحيح البخاريّ ٦/٤٧

قال ابن إسحاق : فحدّثنى عبدالله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبى السّائب مولى عائشة بنت عثمان ، أنّ رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ من بنى عبد الأشهل كان شهداء أحداً مع رسول الله ﷺ قال : شهدت أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخٌ لى فرجعنا جريحين ، فلمّا أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدوّ قلت لأخى أو قال لى : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ، والله ما لنا من دابّةٍ نركبها ، ومامِنّا إلا جريحٌ ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيْسَرَ جرحاً منه .

فكان إذا غُلِب حملته عُقْبَةً (١) ومشى عقبة ، حتّى انتهينا إلى ماانتهى إليه المسلمون» (٢)

عن عائشة رضى الله عنها : الّذين استجابوا لله والرّسول .الآية ، قالت لعروة : ياابن أختى كان أبوك منهم ، الزّبير وأبوبكر رضى الله عنهما لمّا أصاب نبيّ الله ﷺ ما أصابه يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال : من يرجع فى أثرهم . فانتدب منهم سبعون رجلًا فيهم أبوبكر والزّبير . هكذا رواه البخاريّ منفرداً به بهذا السّياق (٣)

قال ابن إسحاق : فخرج رسول الله ﷺ حتّى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال ، فأقام بها الاثنين والثّلاثاء والأربعاء ثمّ رجع إلى المدينة (٤)

(١) العُقبة : النّوبة
(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٥٢/٣
(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٩/١ وانظر تفسير الطّبريّ ١١٨/٤ وثمّة أسماء بعض الّذين استجابوا لله والرّسول .
(٤) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٥٣/٣

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

تستمرّ الآية الكريمة الّتى تبدأ كسابقتها باسم الموصول الّذين فى نعت المؤمنين والمعنى : وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين الّذين استجابوا لله والرّسول والّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم .

فاخشوهم : فاحذروهم واتّقوا لقاءهم فإنّه لا طاقة لكم بهم (١)

حسبنا الله : كفانا الله يعنى يكفينا الله (٢)

ونعم الوكيل : ونعم المولى لمن وليه وكفله (٣)

تثنى الآية الكريمة على المؤمنين الّذين لا يضيع الله تعالى أجرهم وثواب أعمالهم . إنّهم الّذين قال لهم النّاس ، والمراد بهم ركب عبدالقيس الّذين التقى بهم أبوسفيان فى طريقه عائداً من المدينة بعد غزوة أحد وطلب منهم أن يخبروا النّبيّ ﷺ بأنّ النّاس ـــ أباسفيان ومن معه ـــ قد جمعوا لكم الجموع وجيّشوا الجيوش ، من أجل قطع دابركم واستئصال شأفتكم فعليكم أن تحذروهم وتتّقوا لقاءهم كيلا تحلّ بكم هزيمة أخرى كهزيمة أحد فإنّكم لا طاقة لكم على قتالهم ولا قبل لكم بهم ، فما كان من المؤمنين إلّا أن ازداد إيمانهم ، وماكان من المصطفى ﷺ الّذى كان مرابطاً فى حمراء الأسد مع أصحابه ، الّذين طاردوا أباسفيان وجيشه ، إلّا أن قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى الّذى أمرنا بمطاردة الأعداء والّذى وعدنا بالنّصر والّذى خرجنا امتثالاً لأمره مع ما أصابنا فى أحد من جراح وكلوم هو كافينا ومتولّي أمورنا ونعم الوكيل جلّ وعلا القائم بتدبير شئون عباده المؤمنين المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا .

(١) تفسير الطّبريّ ١١٨/٤
(٢) تفسير الطّبريّ ١١٨/٤
(٣) تفسير الطّبريّ ١١٨/٤

عن ابن عبّاس : حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السّلام حين أُلْقِي فى النّار ، وقالها محمّد ﷺ حين قالوا : إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١)

إنّ هؤلاء المؤمنين المتّقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى يستجيبون للمصطفى ﷺ بطل الأبطال الّذى أمر بإيحاء من ربّه جلّ وعلا واستجابةً لأمره تعالى بأن يخرج معه عليه الصّلاة والسّلام فى مطاردة أبى سفيان وجيشه من حضر يوم أحد وحدهم الّذين أثبتت المصيبة صفاء إيمانهم ونقاء معدنهم «فانتدب معه أبوبكر الصّديق وعمر وعثمان وعلي والزّبير وسعد وطلحة وعبدالرّحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبوعبيدة بن الجرّاح فى سبعين رجلًا» (٢) وإنّما خرج رسول الله ﷺ مُرْهباً للعدوّ وليبلغهم أنّه خرج فى طلبهم ليظنّوا به قوّة وأنّ الّذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوّهم (٣)

وقد آتت الاستجابة لله والرّسول أُكلها وأدّت الحملة دورها فبعد أن فكّر أبوسفيان وقومه فى العودة إلى المدينة لاستئصال البقيّة الباقية من المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ وحذّره معبد بن أبى معبد الخزاعيّ من جيش المصطفى ﷺ الّذى خرج من المدينة يطارده (٤) ماكان من أبى سفيان إلّا أن غيّر رأيه وعدل عن العودة إلى المدينة ولكنّه أوهم بأنّه سيكرّ على المدينة وطلب من ركب عبدالقيس الّذى يريد المدينة من أجل الميرة أن يحمل إلى النّبيّ ﷺ رسالة سيكافئه على حملها مستقبلًا وذلك بأن يبلغه عليه الصّلاة والسّلام بأنّ أباسفيان وجيشه قد أجمعوا السّير إليه وإلى أصحابه لاستئصال بقيّتهم وقد بلّغ الرّكب رسالة أبى سفيان وكان من النّبيّ ﷺ الجواب الّذى عرفنا (٥)

وقد عرفنا أنّ المصطفى ﷺ أقام بحمراء الأسد أيّام الاثنين والثّلاثاء والأربعاء . وفى هذه الأثناء كان أبوسفيان قد قطع زهاء ثلث الطّريق إلى مكّة إذ المعروف أنّ القوافل كانت تقطع المسافة من المدينة إلى مكّة وبالعكس فى اثنتي عشرة ليلةً تقريبا .

لقد أراد أولياء الشيّطان أن يخشى المؤمنون أعداء الله تعالى فزادهم ذلك إيماناً إلى إيمانهم فى وعد الله تعالى لهم وزادهم يقيناً إلى يقينهم فى تصديق الله تعالى وتصديق رسوله وزادهم ذلك تسليماً لله تعالى وإذعاناً لمشيئته جلّ وعلا وهاهم أولاء يترجمون التّسليم لله تعالى والإذعان له والتّوكّل عليه فى القول : «حسبنا الله ونعم الوكيل» .

(١) صحيح البخارين ٤٨/٦

(٢) تفسير الطّبريّ ١١٨/٤ وقارن النّصّ هنا بحديث البخاري الذى رواه ابن كثير في التفسير ٤٢٩/١

(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٥٢/٣

(٤) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٥٣/٣

(١) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٥٥/٣

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

فى ضوء ترجيحنا للرّأى الّذى يذهب إلى كون الآيات الكريمات تتحدث عن المؤمنين الّذين خرجوا مع المصطفى ﷺ فى أثر العدوّ بعد غزوة أحد إلى حمراء الأسد وهي على بعد ثمانية أميالٍ من المدينة المنوّرة نستطيع أن نفهم النّعمة فى الآية الكريمة بمعنى الثّواب الجزيل من الله تعالى والعافية حيث إنّ عدوّهم واصل سيره أمامهم وعدل عن رغبته فى العودة إليهم فلم يلقوا كيداً ولم يقتل منهم أحدٌ ولم يجرح ، وأن نفهم الفضل بأنّه تفضّل الله تعالى عليهم بالمزيد من الثّواب، والرّفيع من المنزلة ، والموفور من الغبطة ، والكبير من الكرامة ، والعظيم من الهيبة . وبهذا يتبيّن نوعٌ كبير من التّقارب بين معنى النّعمة والفضل فى الآية الكريمة هنا وفى الآية الكريمة من قبل فى قوله عزّ من قائل عن الشّهداء السّعداء : « يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضل»

وهذه النعمة وهذا الفضل يتحقّقان بإذن الله تعالى دون أن يمسّ المؤمنين سوء أو ينالهم أذى أو يصيبهم قرح ، هذا إلى اتّباعهم رضوان الله تعالى ، ونيلهم رضاه ، عن طريق الاستجابة لله تعالى وللرّسول وطاعة الله تعالى وطاعة الرّسول .

وماكان لشيءٍ من ذلك الخير العميم والفوز الكبير ليتمّ لولا فضل الله تعالى العظيم على المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين استجابوا لله والرّسول من بعد ما أصابهم القرح : «ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم» (١)

(١) سورة محمد ١١

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

تبيّن الآية الكريمة للمؤمنين أولياء الله تعالى أنّ القول الّذى جرى على ألسنة ركب عبدالقيس ووجّهوه إلى المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ المرابطين فى حمراء الأسد والّذى أشار إليه قوله تعالى على لسان أولئك النّاس : «إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم» إنّما هو القول الّذى يجريه الشّيطان على لسان أوليائه والّذى يخوّف به وبمثله أولياءه . وبما أنّ المؤمنين إنّما هم أولياء الله تعالى وقد قال عز من قائل (١) : «ألا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون . الذيّن آمنوا وكانوا يتّقون . لهم البُشْرى فى الحياة الدّنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم» فمعنى هذا أنّ مثل هذا القول لا يخوّف به وبمثله المؤمنون أولياء الله تعالى إنّما يخوّف به وبمثله الكافرون أولياء الشيطان وقد قال تعالى (٢) : «الّذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والّذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطّاغوت فقاتلوا أولياء الشّيطان إنّ كيد الشّيطان ضعيفا»

وتنهى الآية الكريمة أن يخاف المؤمنون أولياء الله تعالى الكافرين أولياء الشّيطان الّذين يجرى الشّيطان على ألسنتهم تلك الأقوال الّتى يراد بها تخويف المؤمنين ، وتأمر الآية الكريمة المؤمنين أن يخافوا الله تعالى وحده لاشريك له إن كانوا مؤمنين .

والمعروف أنّ المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فى حمراء الأسد وبعد غزوة أحد لم يخافوا أولياء الشّيطان إنّما خافوا الله تعالى وحده لا شريك له .

(١) سورة يونس ٦٢ – ٦٤
(٢) سورة النّساء ٧٦

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الشّيطان الرّجيم إنّما يخوّف أولياءه وهذه الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن فريقٍ من أولياء الشّيطان وهم الّذين يسارعون فى الكفر من المنافقين . وسبق أن بيّنت الآية الكريمة السّابعة والسّتّون بعد المائة أنّ المنافقين الّذين خذلوا المصطفى ﷺ فى طريقه إلى أحد بقيادة زعيم المنافقين عبدالله بن إبيّ ابن سلول هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان . وهذه الآية الكريمة تنهى المصطفى ﷺ عن أن يحزن لمسارعة هؤلاء المنافقين فى الكفر ، إنّهم لن يضرّوا الله سبحانه وتعالى لأنّه جلّ وعلا هو الغنيّ ولأنّ العباد هم الفقراء ولأنّ ضرر المسارعة فى الكفر عائدٌ على المنافقين المنصرفين عن الإيمان . وإنّ أولئك الّذين انصرفوا عن الإيمان وسارعوا إلى الكفر قد زادهم الله تعالى عمى قلوبٍ وبصائر إلى عماهم ، فلا يريد جلّ وعلا أن يجعل لهم حظّاً فى الآخرة ولا نصيباً فى الجنّة ، وفى المقابل لهم عذابٌ عظيم فى النّار وبئس القرار .

ونستطيع أن نتبيّن أنّ الآية الكريمة تسلّى المصطفى ﷺ وتسرّى عنه وهو الّذى يكاد يقتل نفسه حزناً لانصراف النّاس عن دين الله وإسراع بعضهم فى الكفر . إنّ على المصطفى ﷺ البلاغ وحده وعلى الله تعالى الحساب .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

نهت الآية الكريمة السّابقة النّبيّ ﷺ عن أن يحزن لمسارعة المنافقين فى الكفر وبيّنت حظّهم من العذاب العظيم فى الآخرة . وهذه الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن أولئك الّذين اشتروا الكفر فعلًا ودفعوا الإيمان ثمناً له وشرحوا صدورهم بالكفر واطمأنّوا له ورضوا عنه . إنّ أولئك الّذين تجاوزا مرحلة الاقتراب من الكفر إلى اعتناقه لن يضرّوا الله سبحانه وتعالى شيئاً تماماً كما لم يضرّه جلّ وعلا أولئك الّذين يسارعون فى اتّجاههم إلى الكفر . وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد جعلت العذاب العظيم نصيباً فى الآخرة للّذين يسارعون فى الكفر فإنّ هذه الآية الكريمة تجعل العذاب الأليم نصيباً للّذين اشتروا الكفر فعلًا ، والمعروف أنّ العذاب الأليم ينبغى أن يكون عظيماً ، وبهذا تتمشّى الزّيادة فى العذاب مع الزّيادة فى الكفر .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

الإملاء : الإطالة فى العمر والإنساء فى الأجل ومنه قوله جلّ ثناؤه: واهجرنى مليّاً أي حيناً طويلا ، ومنه قيل : عشت طويلًا وتملّيت حيناً (١)

تحدّثت الآيتان الكريمتان السّابقتان عن عذاب الّذين يسارعون فى الكفر العظيم فى الآخرة وعذاب الّذين اشتروا الكفر بالإيمان الأليم فى الآخرة كذلك . وهذه الآية الكريمة تتحدّث عن أولئك الكافرين فى هذه الحياة الدّنيا . إنّ على أولئك الكافرين ، الّذين يسارعون فى الكفر والّذين اشتروا الكفر بالإيمان والّذين ازدادوا كفراً ألّا يظنّوا إمهال الله سبحانه وتعالى لهم بإطالة أعمارهم وتأخير عذابهم إهمالًا لهم وأنّ ذلك خيرٌ لهم وألا يعتقدوا أنّ تأخير آجالهم وعقابهم بسبب مزاياهم الخاصّة وعبقريّاتهم النّادرة أو لأنّهم على صراطٍ مستقيم وعملٍ حميد . إنّ إمهال الله تعالى لهم وإملاءه لهم بقصد استدراجهم وقد سارعوا فى الكفر واشتروه بالإيمان وازدادوا كفراً إلى أن يأخذهم جلّ وعلا فجأةً أخذ عزيزٍ مقتدر إن لم يعودوا إلى بارئهم فوراً وينتفعوا من الإمهال ويفهموا الإملاء لهم على حقيقته وبأنّ المقصود به إقامة الحجّة عليهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا . وقد سدّت أنّ ومعمولاها مسدّ مفعولي حسب . ويلاحظ أنّ العذاب المهين من نصيب أولئك الّذين حسبوا إمهال الله تعالى لهم إهمالًا . والعذاب المهين يندرج تحته العذاب الأليم الّذى هو من نصيب الّذين اشتروا الكفر بالإيمان ، وذلك على غرار اندراج العذاب العظيم الّذى هو من نصيب الّذين يسارعون فى الفكر تحت العذاب الأليم .

(١) تفسير الطّبرىّ ١٢٣/٤

مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

تحدّثت الآيات الكريمات السّابقات عن ثواب الشّهداء والمجاهدين فى سبيل الله تعالى المؤمنين ، وعن عذاب المسارعين فى الكفر والّذين اشتروا الكفر بالإيمان والّذين شرحوا بالكفر صدورهم . وفى هذه الآية الكريمة يتّجهّ الحديث إلى المؤمنين الصّادقين فى إيمانهم . والآية الكريمة تقرّر أن الله سبحانه وتعالى ماكان ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه أيّها النّاس من التباس المنافقين بالمؤمنين ، وماكان جلّ وعلا ليترك صادق الإيمان ويذرهم على ماهم عليه من اندساس المنافقين فيهم وتستّرهم بالمؤمنين حتّى يميز جلّ وعلا الخبيث من الطّيّب ويبعد المنافق عن المؤمن ويكشف من يدّعى الإيمان ويفضحه على رؤوس الأشهاد كيلا يندس فى صحيح الإيمان ويمتزج به .

وبما أنه جلّ وعلا ماكان ليطلع المؤمنين على الغيب فضلًا عن سواهم وبالتّالي لن يعرف المؤمنون حقيقة المنافقين المندسّين فى صفوف المؤمنين المتلبسين بهم عن طريق الغيب فقد كانت الوسيلة الّتى يتمّ بها تمييز الخبيث من الطّيّب ووقوف المؤمنين على حقيقة مايضمره المنافقون من كفر إنّما يتمّ عن طريق الابتلاء والتّمحيص على غرار ماحدث يوم أحد ، قبل المعركة وفى أثنائها كذلك . وقد عرفنا انسحاب زعيم المنافقين عبدالله بن أبيّ ابن سلول بثلث الجيش الّذى قوامه ألف شخص . كما أنّ ضعيفى الإيمان والمنافقين قد ظهروا على حقيقتهم حينما صرف الله تعالى المؤمنين عن الكافرين وابتلى المؤمنين فذهبت ريحهم .

وبشأن علم الغيب المحجوب عن المؤمنين فضلًا عن سواهم تقرّر الآية الكريمة أنّ اللهسبحانه وتعالى يختار من رسله من يشاء كي يطلعهم على الغيب ، ومن هؤلاء الرّسل خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبدالله ﷺ . وتأمر الآية الكريمة بالإيمان بالله وبرسله ، وفى مقدّمة هؤلاء المرسلين خاتم النّبيين الّذى بعثه الله تعالى بدين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده وأكمله لهم وأتمّ به النّعمة عليهم .

وتبيّن الآية الكريمة فى مخاطبتها للمؤمنين فى أسلوب الشّرط أنّهم إن هم آمنوا واتّقوا فلهم أجرٌ عظيم . فليس المطلوب من المؤمنين مجرّد الإيمان وحده ، إنّما المطلوب منهم أعلا درجاته ألا وهي درجة التّقوى الّتى تكاد تكون الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . ولهؤلاء المؤمنين المتّقين يوم القيامة الأجر العظيم والثّواب الجزيل .

ويصحّ أن يتحقّق الأجر العظيم فى هذه الحياة الأولى ، وإنّ أجمل الصّور الّتى يتجلّى فيها هذا الأجر فى الدّنيا الحياة الطّيّبة ، وقد قال تعالى (١) : «من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون»

وبهذا تنتهى الآيات السّتون الّتى أنزلها الله تبارك وتعالى فى يوم أحد وفق رأى ابن إسحاق (٢) أو الآيات التّسع والخمسون على وجه التّحديد .

(١) سورة النّحل ٩٧
(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣/٥٨

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

سيطوّقون مابخلوا به يوم القيامة : سيجعل الله مابخل به المانعون الزّكاة طوقاً فى أعناقهم كهيئة الأطواق المعروفة (١)

الجهاد فى سبيل الله تعالى يقوم على دعامتين اثنتين ، الجهاد بالنّفس والجهاد بالمال . ولا تكاد سورة من سور القرآن الكريم تتحدّث عن الجهاد فى سبيل الله تعالى إلّا وتجمع بين هاتين الدّعامتين . وإنّ سورة آل عمران تحدّثت فى زهاء ستّين آيةً عن غزوة أحد والجهاد فى سبيل الله تعالى . وهاهي ذى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن الدّعامة الثّانية ، الجهاد بالمال . وإذا كانت الآية الكريمة تحذّر من البخل وتنهى عنه ، فإنّها تعنى كذلك النّهى عن البخل بما آتى الله سبحانه وتعالى من فضله عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى .

والآية الكريمة فى نهيها عن البخل وحثّها على الإنفاق تتحدّث عن أولئك الّذين لا ينفقون فى سبيله جلّ وعلا من المال الّذى جعلهم مستخلفين فيه ظنّاً منهم،وهم الّذين انصرفوا فصرف الله قلوبهم،أنّ الّذين يبخلون به من صدقات ويمنعونه من زكوات ويحرمون منه أصحابه من الفئات الثّمان الّتى جعل الله سبحانه وتعالى الزّكاة حقّاً لها فى مال الغنيّ ، هو خيرٌ لهم لأنّهم قصيرو النّظر محدودو الإدراك يعتبرون هذه الحياة الدّنيا نهاية المطاف وغاية المنى .

والآية الكريمة تبيّن على الفور خطأ القوم الّذين يحسبون المال الّذى يبخلون به خيراً لهم : «بل هو شرٌّ لهم»

وكيف يكون المال الّذى يبخل به أصحابه ويظنّونه خيراً هو شرّاً فى الحقيقة ؟ هو شرٌّ لأنّهم لا يخرجون منه حقّ الله تعالى ، ولا يؤتون الزّكاة أصحابها ، ولا يتصدّقون على المحتاجين ، وإذا اضطرّوا للإنفاق جعلوا أيديهم مغلولةً إلى أعناقهم ، ولا ينفقون فى سبيل الله تعالى وفى مقدّمة ذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/١٢٧

لقد نعتت هذه السّورة الكريمة (١) المتّقين بأنّهم الّذين ينفقون فى السّرّاء والضّرّاء ، والمراد الإنفاق فى حال اليسر وفى حال العسر وإيتاء الزّكاة والصّدقات . والمعروف أنّ الزّكاة أحد أركان الإسلام الخمسة وقد اقترنت فى القرآن الكريم بالصّلاة فيما يزيد على الثّمانين موضعاً دليلًا على أهمّيتها . فإذا لم يؤت أولئك الباخلون الزّكاة ولم ينفقوا كما ينبغى الإنفاق فى حالتى اليُسْر والعسر فإنّهم يستحقّون كما جاء فى الآية الكريمة أن يطوّقوا يوم القيامة بما بخلوا به ، لأنّ المال الّذى بأيديهم هو من فضل الله تعالى وهو ماله جلّ وعلا وقد جعل العباد مستخلفين فيه . ومع أنّ التّطويق بالمال يوم القيامة يصحّ أن يشمل كلّ جسد البخيل على غرار السلسلة الّتى يطوّق بها من أوتى كتابه بشماله ويسلك فيها ، فإنّ التّطويق يرتبط بالعنق فى المقام الأوّل وكأنّ المال الّذى يطوّق به البخيل الطّوق الّذى يخنقه ويحول بينه وبين الهواء عماد الحياة أن يصل إلى رئتيه والعياذ بالله . يقول البخاريّ (٢) : «سيطوّقون كقولك طوّقته بطوق» عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : من آتاه الله مالًا فلم يؤدّ زكاته مُثّل له مالُهُ شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة يأخذ بِلِهزِمَتيه يعنى بشِدقيه ، يقول : أنا مالك أنا كنزك ثمّ تلا هذه الآية : ولا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله إلى آخر الآية (٣)

وتبيّن الآية الكريمة أنّ لله تعالى ميراث السّماوات والأرض فكلّ من على الأرض فان وقد قال تعالى (٤) : « كلّ من عليها فان . ويَبْقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام» وبما أنّ كلّ من على الأرض فان وبما أنّ الإنسان لا ينفعه يوم القيامة إلّا ماقدّم من صالح الأعمال ، وبما أنّ ابن آدم إذا مات انقطع عمله إلّا من ثلاث إحداها الصّدقة الجارية ، وبما أنّ المال ذاته مال الله تعالى وفضله وقد جعلنا نحن البشر مستخلفين فيه فلم البخل ولم الشّحّ ولم منع أصحاب الحقوق حقوقهم الّتى آتاهم الله تعالى إيّاها من المال الّذى آتانا الله تعالى إياه .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله خبيرٌ بما نعمل ، محيطٌ بأعمالنا وبنوايانا فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء فعلينا إذن أن نبادر إلى عمل الصّالحات ومنها الإنفاق فى سبيل الله تعالى وأن نريد بكلّ أعمالنا وجه الله تعالى وحده لا شريك له .

وبهذا تعتبر الآية الكريمة جزءً من الآيات الّتى تتحدّث عن غزوة أحد والجهاد فى سبيل الله تعالى ، لأنّ المال الدّعامة الثّانية للجهاد فى سبيل الله تعالى أمّا الدّعامة الأولى فهى الجهاد بالنّفس . وعليه تكون الآيات الكريمات الّتى تحدّثت عن غزوة أحد ستين كما ذكر ابن هشام رحمه الله تعالى رحمةً واسعة .

(١) الآية ١٣٤
(٢) صحيح البخاريّ ٤٩/٦
(٣) صحيح البخاريّ ٤٩/٦
(٤) سورة الرّحمن ٢٦ ، ٢٧

تعنت أهل الكتاب وخيانتهم للأمانة

الآيات ١٨١ - ١٨٩

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

سبب النّزول :ـ

قال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس : لمّا نزل قوله تعالى (١) : من ذا الّذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعِفَهُ له أضعافاً كثيرة قالت اليهود : يا محمّد : افتقر ربّك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء الآية (٢)

الآية الكريمة ذات علاقةٍ بالمال الّذى حثّت الآية الكريمة السّابقة على إنفاقه فى سبيل الله تعالى . والآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى ذا الجلال والإكرام لا تختلط عليه الأصوات ولا تصعب اللّغات قد سمع من فوق سبع سماوات قول اليهود عليهم لعنة الله تعالى الّذين قالوا بعد نزول الآية الكريمة من سورة البقرة : من ذا الّذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعِفَهُ له أضعافاً كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ، الذين قالوا كما جاء فى الآية الكريمة : إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء . لقد بلغت الجراءة باليهود والوقاحة إلى حدّ القول عن الله تعالى ذى الجلال والإكرام : إنّ الله فقير ونحن أغنياء . وإنّ ربّ العزّة يقول فى محكم كتابه وقوله الحقّ (٣) : «يا أيّها النّاس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد» ويقول جلّ وعلا (٤) : «والله الغنيّ وأنتم الفقراء» .

وفى أسلوب التّهديد يجىء فى الآية الكريمة القول : «سنكتب ماقالوا» والمراد سنأمر الملائكة الّتى عملها الكتابة أن تكتب ذلك القول الفظيع وإنّ أكبر دليل على فظاعة القول وشناعة معناه فى حقّ الذّات العليّة أن الكتابة تسند إلى الذّات العليّة .

(١) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة
(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٣/١
(٣) سورة فاطر ١٥
(٤) سورة محمّد ٣٨

وهذه الجراءة على تعالى الّتى استحقّت مثل هذا التعبير «سنكتب ماقالوا» اقترن بها جراءةٌ أخرى على أنبياء الله تعالى استحقت هذا التعبير ذاته تقديراً وذلك فى القول : «سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقّ» والمعنى وسنكتب قتلهم الأنبياء بغير حقّ . والملاحظ أنّ الجراءة فى حقّ الذاّت العليّة اقتصرت على القول لأنّ أعداء الله تعالى ينتهى اعتداؤهم بالضّرورة عند هذا الحدّ ، أمّا فيما يتّصل بجراءتهم على أنبياء الله تعالى فإنّها انتهت بهم إلى منتهى مايستطيع أن ينتهى إليه أكثر الخلق إجراماً ألا وهو قتل النّبيّين كما فعل اليهود بزكريّا ويحي عليهما السّلام .

وتنصّ الآية الكريمة على قتل النّبيّين بغير حقّ بمعنى أن اليهود أنفسهم لو سئلوا عن السّبب الّذى من أجله قتلوا هذا النّبيّ أو ذاك لما وجدوا هم أنفسهم لذلك سبباً موجباً للإعراض عنهم فضلًا عن قتلهم . إنّهم يقتلونهم من أجل أنّهم قال الواحد منهم : ربّي الله .

وفى مقابل قول اليهود ماقالوا عن الذّات العلية وقتلهم الأنبياء بغير حقّ يقال لهم يوم القيامة ذوقوا عذاب الحريق ، ذوقوا عذاب نار جهنم المشتعلة الموقدة المتأجّجة ــ والحريق : النّار المحرقة الملتهبة (١)

والآية الكريمة تنسب قتل النّبيّين لليهود المعاصرين للمصطفى ﷺ القائلين : إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء ، بينما القاتلون بآؤهم وأجدادهم لرضاء الخَلْف السّوْء عن جرائم الآباء والأجداد واستعدادهم لو أتيحت لهم الفرصة أن يفعلوا مثل فعلهم .

والمعروف أن يهود المدينة المنوّرة حاولوا أكثر من مرّة أن يقتلوا المصطفى ﷺ وقد قال تعالى مخاطباً حبيبه ﷺ (٢) : «والله يعصمك من النّاس»

(١) تفسير الطّبريّ ٤/١٣١
(٢) سورة المائدة ٦٧

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

ذلك العذاب الأليم بالنّار المحرقة الملتهبة استحقّه اليهود الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء والّذين قتلوا الأنبياء بغير حقّ بسبب ماقدّمت أيديهم من أعمالٍ سيّئة . وقد نسبت تلك الأعمال المقترفة إلى الأيدى لأنّ أكثر الأعمال إنّما تزاول بالأيدى . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى ليس بظلّامٍ للعبيد ولا يظلم مثقال ذرّة . إنّه جلّ وعلا حينما يعاقب كما فعل باليهود فبعد له وحينما يعفو فبفضله تعالى ، لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يسألون .

ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾

عهد إلينا : أوصانا وتقدّم إلينا فى كتبه وعلى ألسن أنبيائه (١)

حتّى يأتينا بقربانٍ تأكله النّار : عن ابن عبّاس : كان الرّجل يتصدّق فإذا تقبّل منه أنزلت عليه نارٌ من السّماء فأكلته (٢)

وبالّذى قلتم : وبالذى ادّعيتم أنّه إذا جاء به لزمكم تصديقه والإقرار بنبوّته من أكل النّار قربانه إذ قرّب لله دلالةً على صدقه (٣)

بيّنت الآية الكريمة قبل السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى قد سمع قول الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء ، وهذه الآية الكريمة تكمل بقيّة أقوال أولئك اليهود ، والمعنى : ولقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله سبحانه وتعالى قد عهد إلينا وأوصانا فى كتبه وعلى ألسن أنبيائه ألّا نؤمن لرسولٍ ولا نصدّقه فيما جاء به من ربّه جلّ وعلا حتّى يأتينا بقربانٍ يَتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى بنيّة أن يصدّقه الله تعالى وينصره فتنزل نارٌ من السّماء تأكل بإذن الله تعالى ذلك القربان دليلًا على صدق ذلك الرّسول فيما جاء به من ربّه جلّ وعلا .

(١) تفسير الطّبريّ ٤/١٣١
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/١٣١
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/١٣١